الجواري والسراري في المغرب قبيل معاهدة فاس:
مقاربة في السلطة والجسد

الباحث فاضل العطار

طالب باحث بسلك الدكتوراه

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس–فاس

المغرب

ملخص المقال:

يقتضي تناول موضوع الجواري والسراري في المغرب قبيل فرض الحماية الفرنسية، ولا سيما في اللحظة المفصلية التي دشنتها معاهدة فاس، الانخراط في تفكيك إحدى البنى الاجتماعية المركبة التي ظلت، إلى عهد قريب، مهمشة في هوامش الكتابة التاريخية الرسمية. وقد غدت هذه الظاهرة مدخلا كاشفا عن آليات اشتغال المجتمع التقليدي في تقاطعه البنيوي مع الاقتصاد والسلطة والجسد.

كما أن مؤسسة الجواري والسراري شكلت ضمن النسيج الحضري المغربي، لاسيما في حواضر كفاس ومراكش، بنية دالة على تراتبية اجتماعية دقيقة وعلى أنماط من التملك والهيمنة الرمزية تتقاطع فيها المرجعيات الدينية مع الممارسات العرفية.

وانطلاقا من هذا المنظور، يروم المقال إعادة قراءة هذه المؤسسة في سياقها التاريخي والاجتماعي، عبر مساءلة شروط تشكلها ووظائفها داخل البنية المخزنية والفضاء الأسري، مع استحضار التحولات التي طرأت عليها خلال القرن التاسع عشر تحت تأثير الضغوط الخارجية وبوادر الإصلاح الداخلي.

كما يسعى إلى مقاربة هذه الظاهرة مقاربة نقدية تستلهم بعض مفاهيم تحليل السلطة والجسد –كما بلورها ميشيل فوكو– بما يتيح تجاوز القراءة الوصفية نحو تفكيك أعمق لرهاناتها الرمزية والاجتماعية. وبذلك، ينفتح البحث على أفق مزدوج: أفق تأريخي يروم فهم الظاهرة في سياقها، وأفق نقدي يطمح إلى مساءلة تمثلاتها في ضوء التحولات القيمية الحديثة.

الكلمات المفتاحية: الجواري والسراري، التاريخ الاجتماعي للمغرب، الجسد والسلطة، التراتبية الاجتماعية، الهيمنة الرمزية.

Abstract :

Addressing the issue of concubines and mistresses in Morocco prior to the imposition of French protectorate rule—particularly at the pivotal moment marked by the Treaty of Fez—requires an examination of one of the complex social structures that, until recently, remained marginalized in official historical narratives. This phenomenon has become a revealing entry point into the mechanisms of traditional society at its structural intersection with the economy, power, and the body.

Furthermore, within the Moroccan urban fabric—particularly in cities such as Fez and Marrakesh—the institution of the jawari and sarari constituted a structure that reflected a precise social hierarchy and patterns of ownership and symbolic domination, in which religious authorities intersected with customary practices.

From this perspective, this article aims to reexamine this institution within its historical and social context by scrutinizing the conditions of its formation and its functions within the Makhzen structure and the family sphere, while highlighting the transformations it underwent during the nineteenth century under the influence of external pressures and the beginnings of internal reform.

It also seeks to adopt a critical approach to this phenomenon, drawing on certain concepts of the analysis of power and the body—as articulated by Michel Foucault—thereby moving beyond a descriptive reading toward a deeper deconstruction of its symbolic and social implications. In doing so, the research opens up to a dual perspective: a historical perspective that aims to understand the phenomenon in its context, and a critical perspective that seeks to interrogate its representations in light of modern shifts in values.

Keywords: concubines and secret wives, social history of Morocco, body and power, social hierarchy, symbolic hegemony.

مقدمة:

يقتضي تناول موضوع الرق والجواري في المغرب خاصة في الفترة الممتدة قبيل فرض الحماية الفرنسية، الانخراط في مساءلة إحدى البنيات الاجتماعية الأكثر تعقيدا والتباسا في التاريخ الاجتماعي المغربي، بالنظر إلى ما تنطوي عليه من تداخل بين المرجعيات الفقهية والتمثلات الثقافية وممارسات السلطة. وإذا كان نظام الرق قد شكل ظاهرة كونية عرفتها معظم المجتمعات التاريخية، فإن تمظهراته داخل السياق المغربي تكتسب خصوصية دالة، سواء من حيث آليات اشتغاله أو من حيث تمفصلاته داخل النسيج الأسري والمخزني. فقد اتخذت مؤسسة الجواري والسراري في المغرب طابعا مركبا، يتراوح بين منطق الإدماج الأسري ومنطق التملك، بما يجعلها بنية وسيطة بين الانتماء العائلي والوضعية الشيئية. فقد شكلت الجارية عنصرا فاعلا داخل الفضاء المنزلي، يخضع لترتيبات دقيقة تحدد موقعه ووظيفته وفق منطق تراتبي صارم. ويزداد هذا التعقيد حين ننتقل إلى الفضاء السلطاني، حيث يتحول الحريم إلى جهاز اجتماعي مغلق، يعكس في بنيته الداخلية صورة مصغرة عن النظام المخزني، بما ينطوي عليه من تدرج في المواقع وتوزيع للأدوار وآليات للضبط والمراقبة.

وفي هذا الإطار، تبرز القصور السلطانية، إلى جانب بيوت الأعيان وخدام دار المخزن، باعتبارها فضاءات مركزية لإعادة إنتاج هذه المؤسسة، حيث تتقاطع فيها السلطة السياسية مع الامتلاك الرمزي والمادي للجسد، ضمن منظومة تحكمها الأعراف والتقاليد بقدر ما تؤطرها المرجعيات الدينية. كما تكشف المعطيات التاريخية، سواء من خلال الكتابات المحلية أو الشهادات الأجنبية، عن تعدد أصول الجواري وتنوع وظائفهن، وعن إمكانات التحول داخل هذا النسق، خاصة حين يرتبط وضع الجارية بالقرب من مركز السلطة أو بالإنجاب. غير أن هذه البنية، على ما اتسمت به من استمرارية، لم تكن بمنأى عن التحولات التي عرفها المغرب خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، حيث بدأت تتعرض لضغوط مزدوجة: خارجية مرتبطة بالتغلغل الكولونيالي وما صاحبه من خطاب إصلاحي حول الرق، وداخلية ناتجة عن محاولات إعادة تنظيم المجال المخزني وإصلاح بعض اختلالاته. وهو ما أفضى إلى إعادة تشكيل تدريجية لوظائف هذه المؤسسة وتمثلاتها، دون أن يؤدي بالضرورة إلى زوالها الفوري.

وعطفا على هذا المنظور، يسعى المقال إلى إعادة قراءة مؤسسة الجواري والسراري في المغرب من خلال مقاربة تاريخية نقدية، تستحضر سياقات تشكلها وتحولاتها، وتفكك أنماط اشتغالها داخل القصر السلطاني وبيوت الأعيان ودار المخزن. كما يستأنس على المستوى النظري، ببعض مفاهيم تحليل السلطة والجسد كما بلورها ميشيل فوكو، بما يتيح تجاوز الوصف التاريخي نحو استكشاف الأبعاد الرمزية والسلطوية التي حكمت هذه الظاهرة، وإدراجها ضمن أفق أوسع لتحولات القيم وأنماط الهيمنة في المجتمع المغربي بين التقليد والحداثة.

أولا: الرق والجواري في المغرب: من الاندماج الأسري إلى منطق التملك

عرف المغرب شأنه في ذلك شأن سائر البلدان، نظام الرق، غير أن دلالة هذه الكلمة لم تكن تحمل في السياق المغربي الطابع الوحشي الذي وسمته به بعض الحضارات القديمة والبدائية. فقد كان العبد يعامل بقدر من الإنسانية، ويتبوأ مكانة تجعل منه عضوا ضمن أسرة سيده، إلى حد لا تطرأ معه في ذهنه فكرة التحرر أو الانفلات من تلك الوضعية أبدا[1]، وتجدر الإشارة في هذا السياق، إلى أن عدد العبيد الذكور كان محدودا مقارنة بعدد الإماء والجواري، اللواتي كن أكثر حضورا وتنوعا من حيث الأصول والانتماءات، فمنهن البيضاوات والسوداوات وغيرهن من الجنسيات المختلفة. ورغم أن الشريعة الإسلامية تبيح التعدد، فإن المغاربة خاصة أبناء الطبقات الثرية، نادرا ما كانوا يعقدون زواجا بأكثر من امرأة أو اثنتين، في حين كانت قصورهم تعج بالحريم من الإماء والجواري، ممن يعاملن كممتلكات خاصة، يتصرف فيهن أسيادهن وفق أهوائهم. ولم يكن للأَمَة أن ترتقي إلى مقام "السيدة" إلا إذا أنجبت من سيدها، فعندئذ تفقد صفة السلعة، ولا يجوز بيعها، وتغدو عضوا

[1]–مدالينا شيزوتي فرارا، ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب، ترجمة مصطفى النشاط ورضوان ناصح، الطبعة الأولى 2019، مطابع الرباط نت، ص.172

دائما ضمن الحريم، تكفل لها سبل العيش والإقامة مدى الحياة. وعند وفاة السيد، يتعين على الوريث أن يواصل الإنفاق على الحريم، بل وينتظر منه أن يعمل على توسيعه بما ينسجم مع مكانته الاجتماعية[2].

هذا، وقد شهد المجتمع المغربي منذ عهود خلت، حضورا واضحا لظاهرة الجواري والإماء، حيث قامت هذه الممارسة قبل دخول الإسلام واستمرت في ظله، متأثرة بتحولات السياق التاريخي الذي عرفه المغرب عبر القرون، فعلى الرغم من توقيع عدد من الاتفاقيات الدولية الرامية إلى القضاء على ظاهرتي الرق والاتجار بالبشر، فإن وجود الجواري لم ينته فعليا، بل استمر إلى ما بعد فترة الاستعمار، خاصة داخل القصور الملكية ومنازل الأعيان.

غير أن هذا الإرث التقليدي عرف تحولا ملحوظا مع اعتلاء الملك محمد السادس العرش، حيث باشر سلسلة من الإصلاحات الرمزية والعملية، من بينها تفكيك جناح الحريم وما يحمله من دلالات مرتبطة بالنظام القديم، في خطوة تؤشر على نهاية مرحلة تاريخية وبداية أخرى تؤسس على مفاهيم الحداثة وحقوق الإنسان[3].

وهو ما سنسعى إلى الوقوف عنده استنادا إلى ما توفر من معطيات تاريخية ووثائقية، ومن خلال تسليط الضوء على أوضاع الإماء والسراري، وأدوارهن المختلفة داخل القصور السلطانية، وفي بيوت خدام دار المخزن، ووسط الأعيان والنخب الاجتماعية.

ثانيا: الحريم والعبيد داخل القصر السلطاني

عرفت القصور السلطانية المغربية، على امتداد فترات تاريخية متلاحقة، حضورا لافتا لعدد من الإماء والجواري من أصول وجنسيات متنوعة، اضطلعن بأدوار وخدمات مختلفة داخل البلاط، وقد تمكنت بعضهن من تجاوز وضعية الرق، عبر التقرب من السلطان، ومعاشرتهن له وحتى الإنجاب منه، ما منحهن مكانة اعتبارية داخل الحريم السلطاني. وفي هذا السياق، يشير غابرييل فيير إلى أن "للا رقية"، أم السلطان مولاي عبد العزيز، كانت من أصول شركسية، وقد حظيت بمكانة مميزة لدى السلطان مولاي الحسن، الذي أحبها حبا جما في أواخر أيامه. كما أن أم السلطان مولاي يوسف كانت بدورها من أصل تركي[4]، مما يعكس الغنى والتنوع في أصول الحريم السلطاني، ودورهن الريادي في تشكيل البيئة الداخلية للبلاط.

ويورد (أوجين أوبان) أن السلطان مولاي عبد العزيز، على الرغم من مكانته وموقعه الذي يتيح له الزواج، لم يتخذ لنفسه زوجة شرعية حتى بعد تجاوزه سن الثالثة والعشرين، وهو ما يفسره (أوبان) بأن السلطان كان يتناول طعامه مع والدته، ويعرض عن جواريه المغربيات بشكل يوحي بنوع من الإهمال أو النفور، مكتفيا آنذاك بالعيش مع ثلاث محظيات تم جلبهن من القسطنطينية. ويعزى إلى هؤلاء المحظيات الأجنبيات إدخال أساليب جديدة في تدبير شؤون الحريم السلطاني، وهي أساليب ينظر إليها من قبل (أوبان) بوصفها قد أفضت إلى "كارثة"، لما ترتب عنها من اضطراب في الأعراف الداخلية للبلاط. كما يرى أن تأثيرهن على شخصية السلطان لم يكن إيجابيا، حيث أصبح ميالا أكثر إلى حياة البذخ والترف وإهمال شؤون الحكم. ومع ذلك، فإن (أوبان) يشير إلى أن تلك المحظيات لم ترزق بمولود من السلطان حتى تاريخ تدوينه لهذه الملاحظات[5]"، هكذا يقضي السلطان معظم وقته "منعزلا بين حريمه لا ينتزع من وسطهن إلا كما يخرج القديس من مثواه ليعرض على شعبه في الأعياد الدينية"[6]. فلماذا يتزوج السلطان وتحت يده كل هؤلاء الإماء؟ والدين نفسه جوز الاستمتاع بهن، حيث يقع ذلك تحت

---

[2]–مدالينا شيزوتي فرارا، ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب، م. س، ص. 172.

[3]–عبد العزيز غوردو، آخر العبيد: الرق في مغرب القرن العشرين: تفكك المنظومة، سلسلة كتب ودراسات رقم:1، أكاديمية الدراسات الفكرية والتربوية، الطبعة الأولى، يونيو 2024، مكتبة قرطبة– وجدة، ص.12.

[4]– عبد العزيز غوردو، م س، ص.23.

[5]– Aubin Eugene, Le Maroc d'aujourd'hui, Librairie Armand Colin, 1904, p.146.

[6]– وايسجربر فريدريك، على عتبة المغرب الحديث، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات دار الأمان، الرباط، 2010، ص.58.

أحكام ملك اليمين وقد نزلت فيه عدة آيات من قوله تعالى: (إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ)[7]. ويذكر المشرفي والسليماني أن اللذان علما السلطان دروب اللهو وأصنافه، هما الحاجب با احماد والعلاف الكبير المنبهي، بإيعاز وإشراف من القايد السير هاري ماكلين، وذلك لإلهاء السلطان عن شؤون الملك والدولة[8].

وبذلك فقد ضج قصر السلطان بالسراري، عد منهن غابرييل فيير أكثر من مائتين ممن تقل أعمارهن عن العشرين [9]، بينهن اثنتا عشرة محظية مفضلة لديه هن اللائي كان ينقلهن معه عندما يتنقل بين جنبات القصر، وكان يخصص لهن يوم الخميس ليتجولن فيه بكامل حريتهن، بعد أن يغلق أبوابه أمام كل أجنبي. كما كان يعلمهن بعض فنون التصوير حتى برعن في ممارسته، والركوب على الدراجة وقيادة السيارة[10].

وعلى الرغم من الهامش المحدود من الحرية الذي كانت تحظى به الإماء داخل القصور السلطانية، فقد فرضت عليهن مراقبة صارمة لضبط سلوكهن وضمان الالتزام بالضوابط المعتمدة داخل الحريم. وقد تمثلت بعض مظاهر هذه الرقابة في منع إدخال بعض أنواع الخضر، كالجزر واللفت، إلى أجنحتهن الخاصة، تحسبا لاستخدامها في ممارسات غير لائقة. كما كانت تتم مراقبة مستلزماتهن بدقة، مثل عد الشموع وتفقدها باستمرار، خشية استغلالها في سلوكيات ينظر إليها باعتبارها خرقا للنظام الأخلاقي داخل الحريم، أو تهديدا لسلطة السيد "[11]. فكل ما يطلب منهن هو ما تقوم به أي أمة أو جارية أو محظية في مكانهن.

ويعود الاكتظاظ العددي لنساء الحريم داخل القصر السلطاني – في جانب منه– إلى تقليد توارث الجواري بين السلاطين، حيث لم يستغن عنهن بانتهاء عهد سلطان معين، بل يستمر حضورهن في البلاط تحت حكم خلفه. وقد أشار (أوجين أوبان) إلى بقاء حريم السلطانين محمد الرابع والحسن الأول في القصر خلال فترة حكم السلطان مولاي عبد العزيز، جنبا إلى جنب مع عدد كبير من محظياته وإمائه، سواء منهن "الناشطات" اللائي لا زلن يقمن بأدوار محددة، أو "المتقاعدات" اللائي أصبحن يعشن في مجموعات نسائية حميمية، تتولى خدمتهن فئة من الجواري الزنجيات. ويتكون هذا الكيان النسائي من نظام داخلي صارم، تشرف عليه "العريفات"، وهن نساء زنجيات متمرسات، سبق أن كن محظيات لسلاطين سابقين، وتم تعيينهن في هذه المناصب الإشرافية لضبط النظام الداخلي للحريم. ويكون لكل فئة من النساء داخل القصر – سواء تعلق الأمر بالزوجات الشرعيات، وضمنهن أرامل السلاطين السابقين، أو بالسراري – "عريفات" خاصات بهن، يتولين الإشراف على شؤونهن الخاصة، وضبط علاقاتهن الداخلية، بما يضمن انسجام النظام المعتمد في الحريم الشريف[12].

ويتعزز هذا المعطى من خلال شهادة الأمير هشام العلوي، حفيد الملك محمد الخامس، حيث يروي في مذكراته أن منزل الأسرة كان يضم عددا من الجواري التركيات، ممن أهداهن الإمبراطور العثماني إلى السلطان مولاي عبد العزيز، عم جده. وقد وصلت هؤلاء الجواري إلى المغرب وهن في سن البلوغ، ليتم إدماجهن ضمن الحريم السلطاني، حيث قضين بقية حياتهن دون مغادرته، إلى أن عشن خريف أعمارهن بين أفراد الأسرة المالكة. ويضيف الأمير هشام أن والده، الأمير مولاي عبد الله، كان يحرص على توفير الراحة والاعتناء بهن، سواء أكن من الجواري التركيات أو من النساء الأخريات اللواتي كانت لهن صلات خاصة بالملك محمد الخامس أو بأحد أسلافه، وهو ما يعكس استمرار العناية بهذا المكون النسائي حتى بعد زوال أدواره التقليدية داخل القصر."[13]، بالإضافة إلى توارث الجواري والمحظيات بين السلاطين، كانت هناك مصادر أخرى لجلبهن، تمثلت في الهدايا المقدمة من القواد والباشوات الذين اعتادوا على إرسال الخيول والبغال وأجمل فتيات القبائل،

---

[7] – سورة المؤمنون، الآية. 6,

[8]– عبد العزيز غوردو، آخر العبيد: الرق في مغرب القرن العشرين: تفكك المنظومة، م. س، ص.26.

[9]- Gabriel Veyre, Dans l'intimité du sultan, Librairie Universelle, Paris, 1905, p.31.

[10] - Gabriel Veyre, ibid, p.41.

[11] - Houel Christian, Mes aventures marocaines, Editions Majellan & Cie, 1954, p.82.

[12] - Aubin Eugene, Ibid, p. 148

[13] - El Alaoui Moulay Hicham, Journal d'un prince banni, Editions Grasset & Fasquelle, 2014, p.23.

حيث يختار السلطان منهن من يضمه إلى حريمه الخاص، زيادة على وجود عدد من الزنجيات اللائي يتم شرائهن من الأسواق المحلية، وإماء أخريات من مختلف الأجناس والألوان، القادمات عن طريق تجار من المشرق بعمولة شريفية[14].

ويذكر الأمير هشام أن من بين الجاريات المفضلات جاريتان سابقتان هما: نجيبة وهاجر "وكنت في صغري أزور جناح الحريم وأحب مشاهدة صورهن القديمة مع الملك أو السلطان العثماني. وكانت هؤلاء النسوة يتحدثن اللغة التركية والعربية المغربية، أي الدارجة، ويعزفن ببراعة على البيانو... وكانت هاجر محظية السلطان مولاي عبد العزيز المفضلة، رغم أنه لم يعاشرها جسديا إلا مرة واحدة في كل حياتها، وكان جميع من في القصر يعرفون بأن شيئا ما حصل تلك الليلة، حيث حدث هرج كبير، حتى إنه نودي على الحرس...ولكن أحدا لم يعلم تمام العلم ما الذي وقع بالضبط... أما هاجر نفسها فإنها لم تتحدث عن الموضوع أبدا".[15]

وقد اختار السلطان مولاي عبد العزيز من بين الجواري الكثيرات داخل القصر السلطاني، اثنتا عشرة غادة من بلاد الشراكسة واتخذهن محظيات ومن بينهن ينتقي كل ليلة اثنتين أو ثلاثا، حسب مزاجه الخاص، وتسهر "العريفة"، في كل يوم، على الاختيار من بين المحظيات الكثيرات بحيث يكون هناك بصورة دورية عدد منهن كل ليلة، يبتن بالقرب من حجرة السلطان وجاهزات لتلبية النداء عند أدنى إشارة[16]، واستمرت العبودية خلال مراحل الصراع بين الأخوين عبد العزيز وعبد الحفيظ، والتي تمثلت في نهب الجنود للخيول والبغال والإماء، خلال المعارك ... من كلا المعسكرين[17]، وفي خضم هذا الصراع الدائر بين الإخوة، انتشرت عصابات اللصوص التي عملت على "بيع النساء بيع الرقيق، كما باعت الأطفال للزناة الفاسقين..."[18]، وبعد عزله من مهامه كسلطان للبلاد، احتفظ مولاي عبد العزيز بكل ممتلكاته النفيسة، ومنها العبيد والسراري والإماء[19].

ولم يختلف واقع القصر السلطاني في عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ لما كان عليه في زمن سلفه المخلوع، فقد ضجت حياة القصر بالعبيد، وامتلأ جناح الحريم بالإماء والمحظيات والسراري[20]. هذا ما أكده ابن زيدان في حديثه عن الرق في المغرب، حيث سجل في الإتحاف "معلومات إضافية حول الوظائف التي كان يقوم بها الموظفون، ومنهم العبيد والإماء". بحيث لكل واحدة منهن أمورها الخاصة التي تقوم بها. فلا يوجد ذكور يقومون بالخدمة إلا في المطبخ، كما يقومون أيضا بالإشراف على الإدارة العليا وضرب الإماء والسراري بالعصا عند الاقتضاء، أما خدمة السلطان الخاصة فتقوم بها بعض السراري، بحيث تتولى كل واحدة، أو مجموعة منهن، خدمة معينة: "صاحبة النظافة، تقديم الشاي، تقديم الجرة للشرب، صاحبة الأكل، المتخصصة في تقديم المنديل..."[21]

كما تحدث في كتابه العز والصولة عن العمل الدقيق الذي كانت تقوم به الإماء داخل القصر السلطاني[22]، وذلك من خلال مبحث مستقل عنونه ب: "نظام إماء القصر وألقاب البعض منهن"، والذي يفصل فيه كل ما يخص الترتيبات والألقاب التي تشمل الإماء والجواري، وهذا يتوافق مع ما ذكرته الكتابات الأجنبية خلال مطلع القرن العشرين.

14- Aubin Eugene, pp. 143-148.

15- ElAlaoui Moulay Hicham, pp. 24-25.

16- عبد العزيز غوردو، آخر العبيد : الرق في مغرب القرن العشرين : تفكك المنظومة، م. س، ص. 37.

17- وايسجربر فريدريك، على عتبة المغرب الحديث، م. س، ص. 169.

18- وايسجربر، نفسه، ص. 181.

19- عبد العزيز غوردو، آخر العبيد: الرق في مغرب القرن العشرين: تفكك المنظومة، م. س، ص.34.

20- Harris Walter, Morocco that Was, W. Blackwood and sons, Edinburgh and London, 1921, p.322.

21 - ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص: 590-632.

22- ابن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية، الرباط، 1962، ص: 60-150.

وعلى نهج أخيه حافظ مولاي عبد الحفيظ بعد خلعه، على حريمه وجواريه وعبيده الذين قدروا بحوالي مائة وستين (160) فردا في المجموع، كما أنه نقلهم معه حين خرج من الرباط في اتجاه "مرسيليا"، ومنها إلى "فيشي"، قبل أن يعود إلى طنجة ويستقر بقصبتها القديمة رفقة عائلته وخدمه[23].

ويذكر (والتر هاريس) أن السلطان كان مع حريمه وجواريه أيضا، يعيش –وهو في فيلا "فيشي"– حياته الطبيعية تماما كما لو كان في مراكش أو فاس، وسواء أكان داخل مقر إقامته، أو أثناء تنقله عبر القطار في أرجاء المدينة، فإن عبيده الزنوج كانوا حاضرين دائما معه بكثرة[24]، وبفعل حياته التي عجت بالبذخ والترف سواء داخل المغرب أو خارجه، أصدر السلطان مولاي يوسف في سنة 1922م ظهيرا في الإذن بحيازة أملاك أخيه، وضم حريمه إلى القصور السلطانية بالعاصمة الجديدة الرباط، ومما جاء في الظهير: "إنه لما كان جنابنا الشريف مهتما أشد الاهتمام بالمحافظة على رفعة وعلو مقام أعضاء العائلة الملوكية...استلفتت أنظارنا إلى سوء تصرف صنونا مولاي عبد الحفيظ الذي انهمك بفساد السيرة متلفا ومسرفا في الفخفخة المفرطة... فاضطرت حينئذ جلالتنا الشريفة إلى المحافظة على تلك العائلة، وصيانة حرمتها فأرجعناها من طنجة إلى الرباط حيث أنزلناها في قصورنا السلطانية الشريفة منزلة لائقة بمقامها... وبناء عليه، فنأمر أن يبدل الحجز الجاري إلى الآن على أملاك مولاي عبد الحفيظ ويعوض عنه بحيازة تلك الأملاك لجانب دولتنا الشريفة بلا قيد ولا شرط"[25].

ثانيا: الحريم والعبيد في حياة خدام المخزن وأعيان المجتمع:

تشكلت "دار المخزن" من مجموعة من الأعيان والوزراء الذين لازموا السلطان، وأقاموا إلى جانبه في عدد من المساكن الصغيرة المعروفة باسم "بنيقات". كما ضمت الدار عددا من الكتاب، والحراس، والخدم، والعبيد الذين شكلوا النواة الإدارية والبشرية المحيطة بالمخزن. وخارج أسوار "دار المخزن"، كان لهؤلاء المسؤولين ممتلكاتهم الخاصة، من دور أو قصور وعائلات وحريم، وعبيد، يشكلون امتدادا لوضعهم الاعتباري والاجتماعي داخل البلاط.

وفي هذا السياق، يشير (غابرييل فيير) إلى أن المنبهي، وزير الحربية، كان يقيم في أحد أجمل منازل مدينة فاس، مع زوجتيه الشرعيتين، ويخدمه ثلاثون عبدا، إضافة إلى امتلاكه عددا كبيرا من الإماء. وقد بلغ صيت ثرائه وتعدد ممتلكاته من الجواري حدا دفع مهرج البلاط المعروف بلقب "فوقاش" إلى التعبير عن رغبته في امتلاك أمة، خلال إحدى السهرات التي كان يقدم فيها فقرات ترفيهية للسلطان وحاشيته، قائلا بنبرة المتوسل: "أنا مسكين، لا أملك لا زوجة ولا أمة"، فما كان من المنبهي إلا أن دعاه للحضور في صباح اليوم التالي ليختار من الإماء من يشاء[26].

وعلى شاكلة المنبهي، عاش المقري منعما بين إمائه وعبيده، تصف "مادالينا شيزوتي" في زيارتها له في فاس، جناح حريمه الخاص:" هناك عدد قليل من العبيد لكن عدد الإماء لا يحصى، وهن مستقدمات من السودان ولونهن أسود مثل الحبر، وثمة إماء بيضاوات وجميلات جدا تم شراؤهن من جورجيا ومن بلاد الشراكسة، حيث يحتفظ النوع الأنثوي بمعظم نقاوة قوامه."[27] واكتفى المقري بزوجة حرة واحدة، والتي كانت في منظومة الحريم تشغل منصب السيدة التي تصدر الأوامر لباقي الإماء، لكنه لم يلتزم بمعاشرتها وحدها فقط، إذ كان ينعم بجواريه حيث أنجب من اثنين من أمتيه، وكانت "إحداهما سودانية من ذوات البشرة الداكنة، وعدستا عينيها دائريتان ومتلألئتان، ذات وجه شبيه بالقرد، وهي ممشوقة القوام، والأخرى كانت خلاسية وجذابة، ذات بشرة مذهبة بفعل الشمس الحارقة"[28].

---

[23]- Harris Walter, Morocco that Was, op. cit, p.124.

[24]- Harris Walter, ibid, pp.167-172.

[25]- الجريدة الرسمية، عدد 467، بتاريخ 12 شعبان 1340هـ موافق 11 أبريل1992م، ص. 453-455.

[26]- عبد العزيز غوردو، آخر العبيد: الرق في مغرب القرن العشرين: تفكك المنظومة، م. س، ص.56.

[27]- مادالينا شيزوتي فرارا، ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب، م. س، ص. 172.

[28]- مادالينا شيزوتي فرارا، ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب، م. س، ص. 174.

إلى جانب هؤلاء، هناك مجموعة من الأعيان والقياد الذين عاشوا على نفس الشاكلة أو ما شابهها، منهم المدني الكلاوي الذي كان من سادة الجنوب الكبار، وبمصاهرته مع السلطان مولاي عبد الحفيظ تسلق المناصب إلى أن شغل دور الصدر الأعظم سنة 1908م، " فانتقل من طور السذاجة والليونة ومراعاة بعض المصالح العامة إلى طور الرفاهية والبذخ والمصالح الخاصة"[29]، وخلال فترة السلطان مولاي يوسف " شرع في بناء القصور الشاهقة في مراكش .... وجلب لهم من السرايا والمغنيات ما لم يجتمع لغيره، واستقدم جوقا كاملا إلى قصره، حيث مكث طيلة شهور يعلم الإماء الموسيقى الأندلسية، فبرعن في ذلك..."[30]، ومن بينهن محظية حبشية جميلة جدا، بلون القهوة بالحليب، والتي أصبحت عازفة الرباب الأولى في كل المغرب."[31] كما يذكر غوستاف بابان بأن المدني الكلاوي بنى بيتا آخر بمدينة مكناس، فيه أجنحة كثيرة خاصة بالنساء، وهو المكان الذي سيقوم بتفويته للفرنسيين، سنة 1910م، مقابل مبلغ مالي كبير، لتحوله فرنسا إلى ما يشبه المستشفى الخاص بجنودها العاملين بالمنطقة[32]. وهكذا كون المدني حاشيته الخاصة من العبيد والجواري التي عاشت داخل قصوره الموزعة بين فاس ومراكش ومكناس.

عاش المدني الكلاوي في مراكش إلى جانب إمائه الكثيرات وبين خدمه وأتباعه وعبيده، حياة باذخة في قصبته، على الطريقة السينيورية تماما، ومثله كان القائد عيسى بن عمر، قائد عبدة[33]، والقائد المتوكي، والكندافي، والعيادي، وعلى نحو أفضل كان يعيش التهامي الكلاوي[34].

الذي استفاد من النظام القديم ومخلفاته، وكذلك من الوضع الجديد الاستعماري، وهو الذي ساهم بشكل كبير في تثبيته، باعتباره سيد الجنوب أو كما يعرف بباشا مراكش، فلم يكن نزول أفراد البعثة الفرنسية القادمة من طنجة إلى فاس، في مارس 1912، عنده في داره عبثا أو بدون معنى، بل كان يتمم ما بدأه أخوه "المدني الكلاوي" في تثبيت وتطبيق السياسة الاستعمارية، فتحولت داره مقرا للبعثة الفرنسية، حيث منها تنطلق الهيئة الدبلوماسية والعسكرية المشرفة على العمليات الميدانية، وإليها تعود أيضا[35].

وبعد وفاة المدني الكلاوي، بسط شقيقه التهامي الكلاوي نفوذه على جميع ممتلكاته، بما في ذلك قصوره بمدينة مراكش وفاس، وما ارتبط بها من عناصر الحياة الخاصة، وعلى رأسها الحريم. وقد شمل ذلك زواجه من أرملته، وهي ابنة الصدر الأعظم "المقري"، إلى جانب استيلائه على عدد من الإماء والعبيد الذين كانوا ضمن حاشية أخيه[36]، ومن بين هؤلاء الجواري، أمة زنجية اسمها "عبلة المتوكية"، التي سلمت للنخاس "بلغياث"، تاجر عبيد الباشا[37]، فباشا مراكش كان ضالعا في عملية السلب والنهب الممنهج، إما بالسرقة المباشرة، أو عن طريق تزييف الوثائق

---

[29]– التعارجي العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، راجعه عبد الوهاب بن منصور، ط.2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993، ص. 241

[30]– التعارجي العباس بن إبراهيم السملالي، م. س، ص.245.

[31]–غوستاف بابان، الباشا الكلاوي: الأسطورة والحقيقة في حياة باشا مراكش، ترجمة عبد الرحيم حزل، مطبعة افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007، ص، 205.

[32]– Babin Gustave, Au Maroc en 1912par les camps et par les villes, Edit. Bernard Grasset, Paris, 1912, p.269.

[33]– عبد العزيز غوردو، آخر العبيد: الرق في مغرب القرن العشرين: تفكك المنظومة، م. س، ص.60.

[34]– Tharaud Jérome et Jean, Marrakech ou les seigneurs de l'Atlas, Librairie Plon, Paris, 1920, pp.169-170.

[35] – وايسجربر، م.س، ص. د236.

[36]–غوستاف بابان، الباشا الكلاوي: الأسطورة والحقيقة في حياة باشا مراكش، م.س، ص.203-204

[37]– غوستافبابان، نفسه، ص 204

وشهود الزور كما حدث مع ورثة عمر الجيار[38]، أو بالزواج من أراملهم وتنصيب نفسه وصيا على الميراث، مثلما حصل مع ورثة الغنجاوي[39]، كما كان يختطف النساء المحصنات ويحتجزهن عنده لإشباع نهمه الجنسي المرضي[40].

فقصور الكلاوي في مراكش وفاس تعج بالجواري والإماء، حيث كان يخصص أجنحة للحريم، فتذكر "اديث وارتون" في زيارتها لقصره وجود عدد غير محدد من الجواري، حسناوات الشكل والمظهر أكثر من محظيات الرباط، ويضاهين الأوربيات في الجمال، وتضيف أنهن من كل الأشكال والألوان حتى إن المرء ليعجز عن الفصل بين من هي الأجمل، والأقرب إلى قلب "السيد" من غيرها....[41].

عموما وحسب ذكر ابن الكلاوي، أنه بعد وفاة والده سنة 1956م، كان بالقصر أزيد من مائة امرأة، منتظمات في مجموعات خاصة، حسب اختصاص كل مجموعة[42]("مولات أتاي"، "مولات الصابون"...) في تقليد تام للسلطان.

ويعتبر الحاجب باحماد (أحمد بن موسى البخاري)، الذي ينتسب لأب عبد زنجي وأمة يهودية[43]، من العبيد الذين عاشوا داخل دار المخزن وتسلقوا الدرجات حتى أصبحت لهم مكانة كبرى في منظومة المخزن، فبعد وفاة السلطان مولاي الحسن، شغل باحماد مكانة الصدر الأعظم في عهد السلطان مولاي عبد العزيز، فأصبح هو الآمر والناهي في كل شيء، له "حركاته" الخاصة التي يقودها بنفسه، فيؤدب القبائل ويقتل رجالها ويسبي ذراريها ونساءها... ويتخذهم عبيدا وإماء[44].

وفي إحدى حركاته ضد قبائل الرحامنة المتمردة نواحي مراكش، بعد هزمهم قام بأسر الرجال وتركهم يموتون في السجون، وسبى الأطفال والنساء حيث تم بيعهم أو التنكيل بهم أو تركهم يموتون من شدة الجوع[45]. لم يرتق باحماد وحده، بل نسج حوله شبكة من العلاقات العائلية[46]، إذ عين أقاربه في مناصب مهمة داخل هرم سلطة المخزن، حتى يضمن قوته وبقاءه في منصبه. وبذلك عاش باحماد حياة البذخ والترف، وتمتع كغيره من السلاطين والأعيان بالحريم والجواري والعبيد...، فقصر الباهية بمراكش، الذي أتمه أواسط سنة 1898م، كانت أجنحته تعج بحريمه الخاص، حيث يقضي معهم أوقاته باستمتاع[47]، ومثل السلطان كانت له عريفات "زنجيات"، وله محظيات من أجناس مختلفة. وعند وفاته سنة 1900 تحولت جميع ممتلكاته بما فيها عبيده وإماؤه إلى حيازة السلطان.

---

[38]- غوستافبابان، نفسه، ص. 129-131.

[39]- غوستافبابان، نفسه، ص. 133-135.

[40]- Houel Christian, Mes aventures marocaines, Ibid, p.73-74.

[41]- Wharton Edith, in Morocco, Charles Scribner's sons, Ney York, 1920, p. 201-203.

[42]- Abdessadek El Glaoui, le Glaoui, mon père- Récit et témoignage, Ed. Marsam, Rabat, 2 ème édition, 2004, p. 104-105.

[43]- Tharaud Jérome et Jean, Marrakech ou les seigneurs de l'Atlas, op. cit, p. 81.

[44]- عبد العزيز غوردو، م س، ص.61.

[45]- Harris Walter, Morocco That Was, op. cit, p. 35.

[46]- المشرفي محمد بن محمد بن مصطفى، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2005، ج.2، ص، 220-221.

[47]- Tharaud Jérome et Jean, Marrakech ou les seigneurs de l'Atlas, op. cit, p.75-76.

خاتمة:

في ختام هذا المقال، يتبين أن مؤسسة الجواري والسراري في المغرب قبيل فرض الحماية، خاصة عند المنعطف التاريخي الذي مثلته معاهدة فاس، قد شكلت بنية مركزية داخل النسق المخزني والمجتمع التقليدي، حيث تداخلت فيها آليات التملك مع أنماط الهيمنة الرمزية، وتقاطعت من خلالها السلطة بالجسد في إطار منظومة ثقافية وفقهية معقدة. وقد أبانت المعطيات التاريخية أن هذه المؤسسة اضطلعت بوظائف متعددة، امتدت من تدبير الحياة اليومية داخل القصور السلطانية وبيوت الأعيان، إلى الإسهام في إعادة إنتاج التراتبية الاجتماعية وترسيخها. كما كشفت هذه الدراسة أن وضع الجواري والسراري لم يكن ثابتًا، بل خضع لتحولات تدريجية ارتبطت بتغير السياقات السياسية والاقتصادية، سواء بفعل الضغوط الخارجية المرتبطة بالتوسع الكولونيالي، أو نتيجة بوادر الإصلاح الداخلي التي مهّدت لإعادة النظر في بعض مكونات النظام التقليدي. وقد استمر حضور هذه الظاهرة، بأشكال متفاوتة، إلى ما بعد فترة الاستعمار، قبل أن تدخل طور التفكك الرمزي والفعلي مع التحولات الحديثة التي عرفها المغرب، خاصة في ظل إعادة تشكيل الدولة لمفاهيم السلطة والشرعية على أسس جديدة.

وتأسيسا عليه، فإن مقاربة موضوع الجواري والسراري تتيح إعادة قراءة التاريخ الاجتماعي المغربي من زاوية نقدية، تتجاوز السرد الوصفي نحو مساءلة البنيات العميقة التي حكمت تمثلات الجسد والمرأة داخل المجتمع التقليدي.

وفي هذا الأفق، يغدو استثمار أدوات التحليل الحديثة، كما بلورها ميشيل فوكو، مدخلا إجرائيا لفهم اشتغال السلطة في مستوياتها الدقيقة بما يسمح بإدراج هذه الظاهرة ضمن تاريخ أوسع لتحولات القيم، وانتقال المجتمع المغربي من منطق التملك والتراتبية المغلقة إلى أفق الحداثة وحقوق الإنسان.

البيبلوغرافيا المعتمدة:

- القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع
- ابن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية، الرباط، 1962.
- التعارجي العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، راجعه عبد الوهاب بن منصور، ط.2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993.
- المشرفي محمد بن محمد بن مصطفى، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2005، ج.2.
- عبد العزيز غوردو، آخر العبيد: الرق في مغرب القرن العشرين: تفكك المنظومة، سلسلة كتب ودراسات رقم:1، أكاديمية الدراسات الفكرية والتربوية، الطبعة الأولى، يونيو 2024، مكتبة قرطبة- وجدة.
- مدالينا شيزوتي فرارا، ذكريات شخصية لحياة حميمة بالمغرب، ترجمة مصطفى النشاط ورضوان ناصح، الطبعة الأولى.2019، مطابع الرباط نت.
- وايسجربر فريدريك، على عتبة المغرب الحديث، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات دار الأمان، الرباط، 2010.
- ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008.
- الجريدة الرسمية، عدد 467، بتاريخ 12 شعبان 1340هـ موافق 11 أبريل1992م.
- غوستاف بابان، الباشا الكلاوي: الأسطورة والحقيقة في حياة باشا مراكش، ترجمة عبد الرحيم حزل، مطبعة افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007.
- Abdessadek El Glaoui, le Glaoui, mon père- Récit et témoignage, Ed. Marsam, Rabat, 2 ème édition, 2004.
- Aubin Eugene, Le Maroc d'aujourd'hui, Librairie Armand Colin, 1904.
- Babin Gustave, Au Maroc en 1912par les camps et par les villes, Edit. Bernard Grasset, Paris, 1912.
- El Alaoui Moulay Hicham, Journal d'un prince banni, Editions Grasset & Fasquelle, 2014.
- Gabriel Veyre, Dans l'intimité du sultan, Librairie Universelle, Paris, 1905.
- Harris Walter, Morocco that Was, W. Blackwood and sons, Edinburgh and London, 1921.
- Houel Christian, Mes aventures marocaines, Editions Majellan & Cie, 1954.
- Tharaud Jérome et Jean, Marrakech ou les seigneurs de l'Atlas, Librairie Plon, Paris, 1920.
- Wharton Edith, in Morocco, Charles Scribner's sons, Ney York, 1920.